المدح والذم والتقريظ والانتقاد

المدح والذم وما ادراك ما هما . أمران استأسد فيهما الهوى والتصق بهما العلم والجهل والرجاء واليأس والرغبة والرهبة حتى ندّت الالسنة والاقلام عن مناهج الصواب . فشردت الاماديح والاهاجي عن مواطن الصدق ودرجت مدارج الكذب وتجلببت جلابيب التمويه فانقلب كلٌّ منهما الى ضدّ ما أُريد به . اي استحال هجو الكرام مدحاً ومدح اللئام هجواً على حدّ ما قال المتنبي

واذا أتتكَ مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كاملُ

فليت شعري من يقوم في زعمهِ ان هجو المشهور بالانصاف والوفاء يصدَّق عند من اتصل اليهم صيتهُ او من الذي يستطيع ان يغطي بسجف مدحهِ ما شاع وذاع من رذائل وخيانات من اشتهر بقلة الحياء وعُرف بالكبرياء والخيلاء

فما مثل هذين الاَّ مثل من يطلي العبد الاسود بطلاء ابيض او يطلي الابيض الكرجي بطلاء اسود حتى يظهرا للنظر على ضدِّ ما جبلا عليهِ ولكن لا يحكم على العبد الاسود انهُ ابيض ولا على الابيض انهُ عبد أسود الاَّ ريثما يذهب الطلاء فيعود كل منهما الى حالهِ الاول فكم ياوفاك الله في الاقدام على مثل ذلك من صفاقة الوجه ولآمة النفس

فمن ثمَّ كثر ما نسمع لعصرنا في هذه الناحية "انا لا امدح" او "انا لا احب المدح" فاذا تذكرت ان متعلَّق المدح هو الصفات الجميلة كالحكمة والكرم والشجاعة والمروءة والرأفة والوفاء . وأنَّ متعلق الذم انما هو الصفات القبيحة كالجهل والطيش والجبن والشح والاختلاس والرثاء حكمت الحكم البات ان ما ذكرنا من قول ناشئة العصر "انا لا امدح" او "انا لا احب المدح" انما هو ضلال مبين ان أُخذ الكلام على اطلاقهِ والاَّ فهل من انسانٍ يذم المحسن ويهجو الشجاع ويطعن في اهل المروءة والنجدة ام هل من احدٍ يشقُّ عليهِ مدح الكرام او هل من امرئ ينفر من الثناء على الابطال الصناديد او يشمئز من التنويه بارباب العلم من مثل الائمة الذين وضعوا كتب العلوم وقرَّروا قواعدها وحرَّروا ضوابطها او من مثل المخترعين الذين كانوا ولن يزالوا للبشرية وَبْلَ منافع وديمَ فوائد كمخترع الخط ومخترع السفن البخارية والسلك البرقي وغيرهم ممن يضيق المقام عن سرد اسمائهم

ولكن اذا نظرت الى وقوع المدح غير موقعهِ ورأيت مطارفهُ الفاخرة على من يدنسونها

بصديد المعيب هان عليك ان توافقهم وذهب عنك استغراب قولهم ذاك "انا لا امدح" وايقنت ان ذلك المدح لمن يتنكبون السنن المسنونة والآداب المحمودة لا يتعدى ان يكون من باب وضع الشيء في غير موضعهِ وهو لعمر الله الظلم بعينهِ وما كان الظلم ليحمد

بالله ربك قل لي من ذا الذي اذا خلي وشأنهُ تطاوعهُ نفسهُ ان يمدح من اذا راجعت تاريخ اعمارهم أو نظرت الى آثارهم اخذك العجب من اجترائهم على الظهور للناس مع كثرة قبائحهم ووفرة فضائحهم . ألا بعيشك انبئني من الذي يطيب لهُ ان يسمع الثناء على جماعة لو انبعثت عن المساوىء رائحة كريهة لما امكن التخلص من نتانة مساوئهم الاَّ باحراق القناطير المقنطرة من العود والبخور

فما تقول يا اخا الادب وظهير الفضل متى رأيت في مديح كل منهم مئين من القصائد تصورهم للناس بصور ينابيع الفضل ومصادر المجد واركان الحق وانصار العدل . وما هم وحياة الانسانية الاَّ دمامل مثالب يسيل قيحها على ذلك المحيا الجميل محيا الانسانية

اقول هذا اضطهاد للادب واصحابهِ . والفضل وارباب هو لو اريد تصويرهُ او تمثيلهُ جاز ان يقال انهُ كاعداد المزابل للادباء والنبلاء ونصب كراسي الكرامة والتعظيم للسفهاء . فياللحق من مضيعهِ وللفضل من مضطهديهِ

واعلم ان لا داعي الى شيء من ذلك الجور على الاخلاق الكريمة واهلها والخروج عن الواقع الاَّ هوىً متبع او امل في نوال او خوف من عقاب او جهل بحقيقة الحال كما سبق الالماع اليهِ . فربما هوى الشاعر امرأةً غير بارعة في الجمال فيصور لها في شعرهِ من المحاسن مالا اثر لهُ الاَّ في تخيلاتهِ . وقد يعظم امل امرىء في شخص حتى يقوم في زعمهِ انهُ سيفتح لهُ خزائن روتشيلد فيمثلهُ فيما ينظم في مدحهِ من القصائد بحر جود يتدفق على الدنيا او سحاباً من ذهب يهمي على الارض

وربما خشي على حياتهِ من جائر لا قبل لهُ بكف عاديتهِ عنهُ فيتزلف اليهِ بقصيدة او بقصائد تشرح تفوقهُ على الانام وتبين عظمة شأنهِ عند الاقوام وتجعلهُ ملاذ البلاد وتحط عن مرتبتهِ عنترة بن شداد وذلك كلهُ رجاء ان لا يتناولهُ بمكروهٍ وفراراً من ان يمسهُ بأذىً . وقد يكون المرء معتقداً علو الهمة وشرف النفس في زيدٍ فيطلق قريحتهُ في بيان رفعة قدرهِ وعلو منزلتهِ حالة كون الواقع على ضدّ ما قام في وهمهِ ولا بكون ذلك عن رغبةٍ ولا عن رهبة ولا انقياداً لهوى في الصدر بل تمثيلاً لما ثبت لهُ عند المادح من الطباع السليمة والصفات النبيلة

ومن هنا فلا تستغرب ان ترى الشاعر يمدح زيداً ثم يهجوهُ ويهجو عمراً ثم يمدحهُ وهو لا يبالي ما قال الناس فيهِ ولا يخشى عار هذا الانقلاب حتى كأن البشر أصبحوا بهائم لا يُستحى ان ترتكب المعاصي امامهم . فهذا المتنبي مدح كافوراً أعلى المدح واجلَّهُ ثم هجاهُ اشدّ الهجو واوجعهُ فاليك بعض ما قال في مدحهِ

ولكن بالفسطاط [1] بحراً أزرتهُ حياتي ونصحي والهوى والقوافيا
قواصدَ كافورٍ توارك غيرهِ ومن قصدَ البحرَ استقلَّ السواقيا
فجاءت بنا إنسانَ عين زمانهِ وخلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

الى ان يقول

يُدلُّ بمعنًى واحدٍ كل فاخرٍ وقد جمع الرحمان فيكَ المعانيا

ودونك ما قال في هجوهِ

من ايَّة الطرق يأتي مثلك الكرمُ أينَ الحاجمُ يا كافورُ والجلمُ
جازَ الالى ملكتَ كفَّاك قدرهمُ فعُرِّفوا بك ان الكلبَ فوقهمُ

أخذتُ بمدحهِ فرأيتُ لهوًا مقالي للأُحيقِ يا حليمُ
ولما أن هجوتُ رأيتُ عيًّا مقالي لابن آدم يا لئيمُ

اني نزلتُ بكذَّابين ضيفهمُ عن القرى وعن الترحال محدودُ
جودُ الرجال من الأيدي وجودهمُ من اللسان فلا كانوا ولا الجودُ
ما يقبض الموت نفساً من نفوسهمِ الَّا وفي يدهِ من نتنها عودُ

ومنها

لا تشترِ العبدَ الَّا والعصا معهُ ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ
ما كنتُ أحسبني أحيا الى زمنٍ يسيءُ بي فيهِ كلبٌ وهو محمودُ

ومنها

مَنْ علَّم الاسودَ المخصيَّ مكرمةً اقوامهُ البيضُ ام آباؤهُ الصيدُ

ثم استيعاباً للكلام في هذا الباب نقسم المدح الى قسمين احدهما المدح بالصفات الفطرية كالسماحة والبسالة والآخر المدح بالصفات الكسبية كالتبحر في العلم وطول الباع في الصناعة . فاما المدح بالصفات الفطرية فلا يحتاج الى علم يتلقى على استاذ . فكلٌّ يستطيع ان يعرفهُ ويحقُّ

(١) الفسطاط مصر القديمة

لهُ ان يذكرهُ ويثني يدٍ على صاحبهِ . فمن يرَ زيدًا يفرق المال على العفاة ويقري الضيفان ويرَ عمرًا يخوض غمار الحرب وينتك بكماتها يتهيأ لهُ ان يثني عليهما بالسخاء وشدة البأس وثبات الجأش . وكذلك من ينال عوارف خالد او يأمل تحصيل فائدة عندهُ يطلق لسانهُ في مدحهِ . وكذا قل في من يخشى غائلة قوي فانهُ يتذرع الى التخلص منهُ بالمدح . فاذا راجعت دواوين الشعراء فلا ترى مدحةً لهم تشذ عن باعثٍ من تلك البواعث

ومن مدحوا رهبةً عبد الله الشهير بصفي الدين بن الشكر كما قال فيهِ شمس الخلافة

مدحتك السنة الانام مخافةً ونقارضت لك في الثناء الاحسنِ
أترى الزمانَ موخرًا في مدتي حتى أعيش الى انطلاق الالسنِ

واما المدح ببسطة العلم وطول الباع فيهِ والبراعة في الصناعة فلا يُقبَل الاَّ من اكابر العلماء وحذاق اهل الصناعة او ممن يسند ذلك اليهم . والاَّ فمن اين للتاجر الجاهل صناعة التصوير مثلاً ان يحكم بأن فلانًا هو ابرع مصوري زمانهِ ولا يعرف من دقائق الصنعة شيئًا ولم يكاشف بشيءٍ من اسرارها . بل من اين للبقال ان يحكم لخالدٍ انهُ اعلم زمانهِ وفرد اوانهِ وهو لا يعرف قاعدة من قواعد ذلك العلم الذي ميزهُ فيهِ على الاقران . ورفعهُ عن الامثال والاندادِ . فلا جرم ان كلا هذين ممن يهرف بما لا يعرف فالمدح بالعلوم والصنائع انما هو من خصائص اربابها يقبل منهم ولا يقبل من سواهم لمكان انهم اهل المعرفة بذلك والخبرة بهِ . وفي الشرائع عامةً ان ما لا يعلمهُ الاَّ ذوو الخبرة يقضى فيهِ على قولهم

غير ان تباين الانظار والاذواق وتلاعب الاهواء والاغراض بنفوس من اثبتنا ان لهم القول الفصل بذلك وتفاوت طبقاتهم في العلم وسعة الاطلاع وقلتهِ قد اطاش سهامهم واوهن احكامهم فارانا واحدًا لسان اهوائهِ ورغائبهِ وواحدًا مقول حسدهِ وكبرهِ وآخر شاهدًا بفساد ذوقهِ وضعف نظرهِ او مثبتًا بوهن حكمهِ قلة اطلاعهِ

ألا وان بعض ما يخالط النفس مما ذكرناهُ يثور عليها فيخيم ضبابهُ حتى ما ترى وجه الصواب فتركب مطايا الغلو مدحًا او ذمًّا . ومن هناك تراهم في تراجم العلماء وتقريظ كتبهم يجاوزون حد المعقول كما يفعل الشعراء في مدح من يجزل لهم الصلات ويسني لهم الجوائز كابي دلف الجواد المشهور فقد قال فيهِ المكوك احد فحول الشعراء المبرزين

انما الدنيا ابو دُلَفٍ بين مغزاهُ ومحتضرهْ
فاذا ولى ابو دُلَفٍ ولت الدنيا على اثرهْ
كلُّ من في الارض من عربٍ بين باديهِ الى حضرهْ

مستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يوم مفتخره

والذي يبعث المقرظ على المغالاة في مدح كتاب او قصيدة إما نشوة تأخذ بلبهِ لوقوعهِ في الكتاب او القصيدة على ما يحسن في ذوقهِ ويلائم ما في نفسهِ . وإما كون الكتاب او الشعر لحبيب لهُ كرامة عندهُ فهما وان كانا من طبقة متوسطة يجعلهما في الطبقة الاولى ولا يرى فيهما مغمزًا ولا مطعنًا ويغنوه بالمؤلف والشاعر تنويهًا ينطبق على ما لهُ في صدرهِ من التكريم . وكذلك يفعل في الانتقاد اجابةً لداعي سخطهِ كما سترى . وإما مقصد آخر تتعلق بهِ نفس المقرظ فتتطرق الى ادراكهِ بالتقريظ المتعدي حد ما يستحق المقرظ ونظائر ذلك كثيرة لعهدنا . فأجدر باولئك المادحين والمقرظين ان يرفعوا البراقع عن عيونهم ويجعلوا المدح والتقريظ منطبقين على الواقع ولو توسعوا فيهما كما تقتضيهِ طبيعة الثناء بالخير والاَّ ازرى بهم اهل الذوق من الخواص والعوام ولم يعد فيهم من يحفل بكلامهم او يأخذ بهِ فيكون لهم بذلك عقوبة شبيهة بعقوبة المأمون للمكوك . فقد اخرج لسانهُ من قفاهُ لقولهِ في ابي دلف ايضًا

انت الذي تنزل الايام منزلها وتنقل الدهر من حالٍ الى حالِ
وما مددتَ مدى طرفٍ الى احدٍ الاَّ قضيت بارزاق وآجالِ

والادلة على الغلو في التقريظ كثيرة نقتصر منها على ثلاثة ونحيل بالباقي على مطالعة الكتب

الدليل الاول

في تقريظ الخطب النباتية

قال ابن خلكان في خطب عبد الرحيم بن نباتة[1] "وقع الاجماع على انهُ ما عمل مثلها" يريد انها فريدة في بلاغتها وحيدة في حسن ديباجتها يتيمة الدهر في انسجامها وقوة معانيها . اقول ان هذا الاطلاق ليس بقائم على اسٍّ متينٍ كما يراهُ من اطلع على نهج البلاغة فقد أودع من الخطب ما تراءى فيهِ البيان بأبهى مظاهرهِ وتجلى بابهر بدائعهِ . فياليت شعري من ذا الذي يوازن بين خطب الامام عليٍّ وخطب ابن نباتة ثم يجرؤ ان يقول في الخطب النباتية "وقع الاجماع على انهُ ما عمل مثلها"

لا أُريد بذلك الغضَّ من هذه الخطب فهي والحق يقال خطب بليغة معبرة تشهد لصاحبها بطول الباع في صناعة الانشاء وتقضي لهُ بانهُ من افرس فرسان البيان ومن

(١) ولد ابن نباتة سنة ٣٣٥ هـ بميافارقين وتوفي بها سنة ٣٧٤ هـ وقد خرج من ميافارقين الخطيب الشهير المعروف بأبي طيم وهو احد بطاركة النساطرة

احقّ من يشار اليهم بالبنان . ولكنها لم تبلغ ان تفضّل على الخطب الحريرية [١] فضلاً عن الخطب العلوية . فان شئت فعارضها بها تظهر لك حقيقة الامر وتعلم حينئذٍ ان ابن خلكان [٢] انما قال فيها ما قال اما لأنها اشدّ ملاءمةً لذوقهِ واما لأنها احسن من سواها موقعاً في نفسهِ واما لانهُ لم يقابلها وقتئذٍ بما هو من جنسها فقلّد في تقريظها غيرهُ فجاء حكمهُ جائرًا فيما أرى

الدليل الثاني

في وصف ابي الوليد بن زيدون

قال ابن بسّام [٣] صاحب الذخيرة في ابي الوليد بن زيدون "كان ابو الوليد غاية منثورٍ ومنظومٍ وخاتمة شعراء بني مخزوم اخذ من حرّ الايام حرًّا . وفاق الانام طرًّا"

نعم ان ابن زيدون [٤] كاتب بليغ وشاعر مجيد . فلا يتعدّى الحدّ من يقول انهُ غاية منثورٍ ومنظوم

اما اطلاق القول بأنهُ فاق الانام طرًّا فمن قابل شعرهُ بشعر غيرهِ من الفحول انتقض عندهُ هذا القول من اصلهِ فانهُ يرى في طبقتهِ خلقًا من الشعراء فلو سئل ابن بسام متى امتحنت الانام اجمع وعرفت طبقة كلّ منهم حتى جاز لك القول انهُ فاق الانام طرًّا ما استطاع الى الجواب سبيلاً اللهم الاّ ان يقول انما اراد انام بلدهِ وعصرهِ فيكون من باب قولهم جمع الامير الصاغة يعني كلهم والمراد كل صاغة بلدهِ لا كل صاغة الدنيا

قلت الاولى في مثل ذلك ان يُجرى على سنة التخصيص كما جرى صاحب الذيل في ترجمة ابي الفضل الميكالي [٥] قال "كان أوحد خراسان في ذلك العصر ادبًا وفضلاً" وكما قال في صفيّ الدين الحليّ [٦] ونصّ قولهِ "هو الامام العلاّمة البليغ القدوة الناظم الناثر شاعر عصرهِ على الاطلاق" واوقع منهُ في النفس واثبت عند الامتحان ما جاء لابن شاكر في

---

(١) كانت ولادة الحريري سنة ٤٤٦ هـ وتوفي بالبصرة سنة ٥١٦ هـ

(٢) ولد ابن خلكان باربل سنة ٦٠٨ هـ وتوفي بدمشق سنة ٦٨١ هـ

(٣) ابن بسام توفي سنة ٣٠٢ وقيل ٣٠٣ هـ

(٤) كانت وفاة ابن زيدون بمدينة اشبيلية في صدر رجب سنة ٤٦٣ هـ (٥) كانت وفاة ابي الفضل الميكالي يوم عيد الأضحى سنة ٤٣٦ هـ

(٦) كانت ولادة الصفي الحلي سنة ٦٧٧ هـ ووفاته سنة ٧٥٠

ترجمة ناصر الدين بن النقيب [١] وهذا نصّ قولهِ " شعرهُ حسن جيد عذب منسجم فيهِ التورية الرائقة اللائقة المتمكنة . وهو احد فرسان تلك الحلبة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ومقاطيعهُ جيدة الى الغاية " ونظير هذا قولهُ في عبدالله الجماعليّ الدمشقيّ [٢] " كان اماماً حجة مصنفاً متفنناً محرراً متبحراً في العلوم "

وينتظم في هذا السلك قولهُ في الكاتب المعروف بالبديع [٣] كان آيةً في النظم والنثر. فما قالهُ ابن شاكر فيمن ذكرنا تنويهٌ مقبول ونعت يصحّ في المعقول ومن هذا الباب وصفهُ لابن المعتزّ [٤] بصاحب الشعر البديع والنثر الرائق

الدليل الثالث

ما جاء للزمخشريّ في تقريظ مقامات الحريريّ وهذا هو

أُقسم بالله وآياتهِ ومشعر الحجّ وميقاتهِ
أنّ الحريريّ حريٌّ بأن تكتب بالتبر مقاماتهِ
معجزةٌ تعجز كل الورى ولو سروا في خوشمشكاتهِ

قلت لامراء ان النسج على منوال الحريريّ اشقّ ما يحوم حولهُ المشيُّ وأوعر ما يسلكهُ الكاتب ومقاماتهُ حريّةٌ بان تكتب بماء الذهب فقد شهدت بلاغتها انهُ قد ملك قياد البديع وقامت لهُ اللغة مقام الخادم المطيع والعبد الامين وانقادت لهُ المعاني انقياد الاسير العاني لكنني لا احسبها معجزة تقصر ايدي البلغاء قدمائهم ومحدثيهم عن الاتيان بمثلها . وما كان الزمخشري ليعجزهُ انشاء مقامات في طبقتها وهو من ابلغ الكتّاب في اللسان العربيّ . وعندي ان هذا الغلوّ في تقريظ المقامات الى هذا الحدّ وان كان لأحد امراء البيان وفرسان البراع اشبه بغبار يقع على محيّاها فيحجب من جمالهِ وربما ساق الفحول من علماء الأدب الى تعقبها والتنديد بها

وربّ قائل يقول كفى بالحريريّ فضلاً وحسبهُ فخراً ان يظرئهُ مثل الزمخشريّ هذا الاطراء ويقضي لهُ بالسبق على الناس اجمعين . فهذا من فريق من لا يدققون النظر في الامور واما انا فلو كنت الحريريّ وكانت هذه المقامات لي لتبرّأت من قبول تقريظ يجعلني

(١) توفي ناصر الدين بن النقيب سنة ٦٨٧ هـ (٢) ولد عبدالله الجماعليّ الدمشقيّ سنة ٥٤١ هـ ومات سنة ٦٣٠ هـ (٣) توفي الكاتب المعروف بالبديع سنة ٥٢٤ هـ (٤) ولد ابن المعتزّ في شعبان سنة ٢٤٩ هـ وقيل في ربيع الآخر سنة ٢٩٦

فريد الدنيا وفائق الناس من درج منهم ومن بقي ومن يأتي . وفي قول ابي القاسم الحريري "هذا مع اعترافي بان البديع[1] سبّاق غايات . وصاحب آيات . وان المتصدي بعده لانشاء مقامة ولو أتى ببلاغة قدامة لا يعترف الاّ من فضائله ولا يسري ذلك المسرى الاّ بدلالته" ما يشير الى انهُ لا يرتاح نفساً إلى ان يبلغ الغلوّ في تقريظ مقاماتهِ الى حد ان يجعلها فوق طوق البشر كما هو صريح قول الزمخشري فيها . ولعلّ سائلاً يقول لو سئل الزمخشريّ[2] عن قولهِ

معجزةٌ تعجز كلّ الورى ولو سروا في ضوء مشكاتهِ

بماذا كان يجيب قلت ما كان يسعهُ ان يخرج من ذلك الاّ بان يقول انما أردت ان الحريريّ بلغ اقصى ما يستطيع ان يبلغهُ اكابر اهل الانشاء في وضع المقامات وانما عدلت عن مذهب الاقتصار على الحدّ الاوسط الى مذهب الغلوّ تفخيماً للأمر واظهاراً لمزيّة ذلك المنشئ الناشر راية الابداع الحامل لواء البراعة . على ان الزمخشريّ قد غلبت عليهِ فيما اظنّ نشوة الاستحسان لبدائعها والتعجب من روائعها حتى خيل لهُ انها معجزة تفوت حدّ الفصاحة البشريّة ولاسيما ان كان ممن يهيمون ببتانة العبارة مع التمنيق والزخرفة فيكون قد رآها بعين الساري وقد طلع عليهِ البدر . هذا ولم أرَ مادحاً أرعى لقدر العلم والانصاف من البديع الهمذاني فقد وصف في مقامتهِ القريضية امرأ القيس والنابغة وزهيراً وطرفة وجريراً والفرزدق والمحدثين والمتقدمين من الشعراء وصفاً منطبقاً على الصحة قال في امرئ القيس "هو اول من وقف في الديار وعرصاتها واغتدى والطير في وكناتها . ولم يقل الشعر كاسباً . ولم يجد القول راغباً ففضل من تنتق الحيلة لسانهُ . وتنتج الرغبة بيانهُ"

وقال في النابغة "يثلب اذا حنق . ويمدح اذا رغب . ويعتذر اذا رهب فلا يرمي الاّ صائباً"

وقال في زهير "يذيب الشعر والشعر يذيبهُ ويدعو القول والسحر يجيبهُ"

وقال في طرفة "هو ماء الاشعار وطينتها وكنز القوافي ومدينتها . مات ولم تظهر اسرار دفائنهِ . ولم تفتح اغلاق خزائنهِ" ثم وازن بين جرير والفرزدق فقال

"جرير ادقّ شعراً . واغزر بحراً . والفرزدق امتن صخراً . واكثر فخراً . وجرير اوجع هجواً . واشرف يوماً . والفرزدق اكثر روماً واكرم قوماً . وجرير اذا نسب اشجى واذا

(١) البديع الهمذاني توفي سنة ٣٩٨ هـ وقد أربى على الاربعين (٢) الزمخشري ولد بزمخشر قرية بخوارزم سنة ٤٦٧ هـ ومات في جرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ هـ

تلب أردى . واذا مدح اسنى . والفرزدق اذا افتخر اجزى . واذا احتقر ازرى . واذا وصف اوفى "

وقال " المتقدمون اشرف لفظاً . وأكثر من المعاني حظاً . والمتأخرون الطف صنعاً . وارق نسجاً "

وشتان ما حكم البديع وحكم الحريري في مسئلة المتقدمين والمتأخرين اما الاول فقد مرّ بك حكمهُ واما الثاني فقد قسم الناس الى فريقين فريق قضى للمتقدمين على المتأخرين حيث قال في المقامة المراغية "حضرت ديوان النظر بالمراغة . وقد جرى بهِ ذكر البلاغة . فاجمع من حضر من فرسان اليراعة . وارباب البراعة على انهُ لم يبقَ من ينقح الانشاء . ويتصرف فيهِ كيف شاء ولا خلف بعد السلف .... وان المتلق من كتاب هذا الاوان المتمكن من ازمة البيان كالعيال على الاوائل . ولو ملك فصاحة سحبان وائل "

وفريق قضى للمتأخرين على المتقدمين حيث قال "عظمتم العظام الرفات . وافتتم في الميل الى من فات وغمصتم[1] جيلكم الذين فيهم لكم اللدات[2] ومعهم انعقدت المودّات . أنسيتم ياجهابذة النقد . وموابذة[3] الحل والعقد . ما ابرزتهُ طوارف القرائح . وبرّز فيهِ الجذع على القادح . من العبارات المهذبة والاستعارات المستعذبة والرسائل الموشحة . والاساجيع المستملحة . وهل للقدماء اذا انعم النظر . من حضر . غير المعاني المطروقة الموارد . المعقولة الشوارد . المأثورة عنهم لتقادم المولد لا لتقدم الصادر على الوارد "

ثم مهد لنفسهِ طريق الامتياز على المتأخرين والمتقدمين من البلغاء . ونادى بلسان حالهِ انهُ مع ما اخذ نفسهُ بهِ من الاعنات في تلك الرسالة بالتزام ما لا يلزم البليغ من الاتيان بكلمة مهملة واخرى معجمة مع التقيد بالسجع والجناس وسائر وجوه البديع قد جاء بابلغ الكلام واسمنهِ فبز الاوائل والاواخر

قلت لاغروان هذا المنشئ الذي يعدُّ من اعيان الطبقة الاولى بين ارباب اليراع قد حال العجب بينهُ وبين الاصابة بالحكم فكان البديع اصوب منهُ رأياً في ذلك واصح نظراً وارسخ في البلاغة قدماً . والواصف اذا خرج من رق الهوى وانقاد لدليل الحجى كان في الموازنة كالميزان عدلاً وصدقاً . وهذا خالد بن صفوان الشبيه بالبديع في الموازنة الخالية من جذبات الحب ودفعات البغض الناطقة ببسطة العلم وصفاء الذهن قد وازن بين جرير

(١) غمصتم اي عبتم (٢) اللدات المساوون في العمر (٣) الجهابذة جمع الجهبذ وهو الصراف والموابذة جمع الموبذ وهو في الاصل حاكم المجوس فاستعيرهنا

والفرزدق والاخطل في مجلس هشام بن عبد الملك موازنةً انعقد عليها رضاهم واليك خبرها

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان صف لي جريرًا والفرزدق والاخطل فقال يا امير المؤمنين اما اعظمهم فخرًا وابعدهم ذكرًا واحسنهم عذرًا وايسرهم مثلاً . واحلاهم عللاً . البحر الطامي اذا زخر . والحامي اذا دغر [1] والسامي اذا خطر . الذي اذا هدر [2] قال واذا خطر صال [3] الفصيح اللسان الطويل العنان فالفرزدق

واما احسنهم نعتًا . وامدحهم بيتًا . واقلهم فوتًا . الذي اذا هجا وضع . واذا مدح رفع فالاخطل

وأما اغزرهم بحرًا . وارقهم شعرًا واهتكهم لعدوه سترًا . الاغر الابلق . الذي ان طُلب لم يُسبق . وان طَلب لم يُلحق فجرير

وكلهم ذكي الفؤاد . رفيع العماد . واري الزناد

قال مسلمة بن عبد الملك وكان حاضرًا ما سمعنا بمثلك يا ابن صفوان في الاولين ولا في الآخرين اشهد انك احسنهم وصفًا . وألينهم عطفًا . واخفهم مقالاً . واكرمهم فعالاً

فقال خالد اتم الله عليك نعمتهُ . واجزل لك قسمتهُ . انت والله ايها الامير ما علمت كريم الفراس عالمٌ بالناس . جوادٌ في المحل . بسام عند البذل . حليمٌ عند الطيش . في الذروة من قريش . من اشراف عبد شمس ويومك خيرٌ من الأمس

فضحك هشام وقال ما رأيت يا ابن صفوان كتخلصك في مدح هؤلاء ووصفهم حتى ارضيتهم جميعًا وسلمت منهم "

وفي طبقات الشعراء لابن قُتيبة كلامٌ يجدر بنا في هذا المقام ذكرهُ فنرويهِ لك بنصهِ قال " لا احسب احدًا من اهل التمييز والنظر نظر بعين العدل وترك التقليد يستطيع ان يقدّم احدًا من المتقدمين المكثرين الا بان يرى الجيد في شعرهِ اكثر من الجيد في شعر غيرهِ ولله در القائل : اشعر الناس من انت في شعرهِ حتى تفرغ منهُ

وقال المتنبي " أنشد مروان بن ابي حفصة لزُهَير فقال زهير اشعر الناس ثم أنشد للأعشى فقال بل هذا اشعر الناس ثم أنشد لامرئ القيس فكأنما سمع بهِ غناء على شراب فقال والله امرؤ القيس اشعر الناس "

والحاصل ان المدح والتقريظ بحيث لا مصدر لهما الا الفضل والصواب كما تقدّمت لنا

(١) دغر : فحم من غير تثبت (٢) هدر : صوّت (٣) صال : سطا

الاشارة اليهِ كان على المادح او المقرظ ان يقطع لممدوحهِ او مقرَّظهِ ثوبًا من الثناء واسعًا ضافيًا ليكون في سعتهِ وضفوهِ دليل على ان ذلك وان كان حقًّا الاَّ انهُ قد خالطهُ شيءٌ من تحسين الحبّ وما كان الحبيب ليقري حبيبهُ بالطعام الجشب [1] او ليقف بمدحهِ عند حدّ الاهلية بل يدفعهُ الحبّ الى ان يتخطى ذلك الحدّ تخطيًا مألوفًا. وهل المدح الاَّ عن كرم في الطباع وكيف يتلاقى الشحّ والكرم في جهةٍ واحدة وباعتبارٍ واحدٍ

سعيد الخوري الشرتوني

زوجها ابوها

الشعر القصصي كان شائعًا عند العرب قبل الاسلام كما ترى في اراجيزهم وبعض قصائدهم المشهورة وهو اقرب الى الفطرة من الشعر المقصور على المدح والهجاء والغزل والرثاء والوصف والحكم او على نظم العلوم والفنون. لكن العرب لم يبلغوا فيهِ مبلغ اليونان والرومان ولا مبلغ الفرس والهنود ثم اهملوهُ بعد الاسلام فوضعوا قصَّة عنترة نثرًا بدلاً من وضعها شعرًا. وفعلوا كذلك بالف ليلة وليلة. وقد رأى ابناء عصرنا ان يعودوا الى الشعر القصصي ويجاروا فيهِ الافرنج ومن ذلك هذه القصيدة وقد حدثت حادثتها في احدى مدن سويسرا وتناقلتها الجرائد الافرنجية. وخبرها ان احد الشبان واسمهُ مولر تزوج منذ عشرين سنة بفتاة فقيرة مثلهِ فاضطرَّ ان يرحل عنها وهي حامل ثم انقطع خبرهُ حتى ظنهُ الناس قد مات في غربتهِ اما زوجتهُ فولدت بنتًا وماتت عنها ساعة وضعها فتبنَّى الطفلة رجل غنيٌّ كريم من بلدة مجاورة. وفي هذه الايام عاد والد تلك الطفلة من سفرهِ وقد حسنت حالهُ فأُخبر بوفاة زوجتهِ اما ابنتهُ فلم يعرف عنها شيئًا ورجح لهُ اهل بلدهِ انها قد تكون لحقت بوالدتها ثم فارقهم. واتفق انهُ قدم بلد الرجل الذي تبنَّى ابنتهُ ووقع بصرهُ عليها دون ان يعرفها فأُعجب بجمالها وآدابها فخطبها الى مربيها فازوجهُ بها ثم عرف من حديثها انها ابنتهُ بلا ريب فلم يجد افضل من الانتحار فانتحر بعد ان اوصى لها بثروتهِ. انتهى الخبر ملخصًا

فتناول هذه القصة حضرة الشاعر العصري نقولا افندي رزق الله ونظمها فجاءت قصيدة حسناء تشهد لناظمها بالبراعة والفضل قال

---

(١) الجشب من الطعام ما لا ادام فيهِ